

دلائل الإعجاز

من أنها تُبطلُ عملَها حتى ترى الذَّحويين لا يزدون في أكثرِ كلامهم على أنها
كافَّة . ومكانُها هاهنا يُزيلُ هذا الطَّنَّ ويبطله . وذلك أنك ترى أنك لو قلت : ما
جاءني زيدٌ وإنَّ عمراً جاءني لم يُعقلُ منه أنك أردتَ أن الجائي عمرٌو لا زيدٌ بل
يكونُ دخولُ إنَّ كالشيءِ الذي لا يحتاجُ إليه ووجدتَ المعنى يندبو عنه .
ثم اعلمُ أنك إذا استقرتَ وجدتها أقوى ما تكونُ وأعلقَ ما ترى بالقلبِ إذا كان لا
يُرادُ بالكلامِ بعدها نفسُ معناه ولكنَّ التَّعريضَ بأمرٍ هو مقتضاه نحوُ أنَّا نعلمُ
أنَّ ليس الغرضُ من قوله تعالى : (إِنْ نَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) أن يعلمَ
السَّامِعُونَ ظاهرَ معناه ولكن أن يذمَّ الكفارُ وأنَّ يُقالَ : إِنْهم من فرطِ
العنادِ . ومن غلبةِ الهوى عليهم في حكمِ مَنْ ليس بذي عقلٍ . وإِنْكم إِنْ طَمَعْتُمْ
منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتُمْ كمن طَمَعَ في ذلك من غيرِ أولي الألبابِ . وكذلك
قوله : (إِنْ نَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا) وقوله عزَّ اسمه : (إِنْ نَّمَا
تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) . المعنى على أَنَّ مَنْ لم تكن له
هذه الخَشِيةُ فهو كأنه ليس له أذنٌ تسمعُ وقلبٌ يَعْقِلُ . فالإِنْذارُ معه كلاًَّ
إِنْذارُ . ومثالُ ذلك من الشعرِ قوله - مجزوء الرمل - :
(أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مُحِبَّةًهَا ... إِنْ نَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا) .
الغرضُ أن يُفهمَكَ من طريقِ التَّعريضِ أنه قد صار يندمُصَّحُ نفسه ويعلم أنه يندبُغي
له أن يقطعَ الطَّمَعَ من وصلِها ويَيسرَأسَ من أن يكونَ منها إِسعافُ . ومن ذلك قوله -
البسيط - :
(وَإِنْ نَّمَا يَعْذِرُ الْعُشَّاقُ مَنْ عَشِقَا ...)